صفحات من أوراق جدي الصفراء .. لا تصغي للمحبِطين

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 8 يناير 2023

بقلم: الدكتور زكريا الخنجي

فتحت صندوق أوراق جدي الصفراء، ورحت أعبث في كل تلك الأكوام الصفراء، ثم سحبت عدة أوراق منها حتى وقع بصري على هذه الحكاية، التي تقول:

كان شاب ميكانيكي يعمل في ورشة عمل متواضعة، يتقاضى أسبوعًا مبلغ من المال قُدر بحوالي 11 دولارًا، وذلك مقابل عمل مدته 10 ساعات يوميًا، ولكن هذا الشاب كان يجد في نفسه القدرة الكبيرة على العمل بعد أن يعود للمنزل، فكان بعدما يعود يقضي جزءًا من وقته في حظيرة البيت في محاولة لإصلاح بعض الآليات والمكائن التي كان يأتي بها الجيران، إلا أنه وعلى الرغم من ذلك كان يحلم بصنع محرك جديد لم يعهده الناس، أو تطوير آلة قديمة لتصبح فكرة مبتكرة.

وكان هذا حلمه.

إلا أن العديد من أصحابه وحتى والده كانوا يعتبرون أن هذا الحلم ضرب من العبث، إذ لم يعد في الكون أي نوع من المحركات لم يكتشف بعد.

وفي المقابل فإنه زوجته الشابة الذي كان يطلق عليها لقب (المؤمنة) هي الوحيدة من بين أهله وجيرانه التي كانت تُشجعه، وكانت تقضي معه طيلة الليل تشد من أزره وتلهب من حماسه. وكانت عندما يحل

فصل الشتاء تحمل له في يدها مصباح الغاز لتضيء له بينما أسنانها تصطك من البرودة، واستمر الوضع على هذا المنوال لمدة ثلاث سنوات.

ويستمر جدي في سرد هذه الحكاية، فيقول:

وفي عام 1893 أشرف عمل الشاب على نهايته، وكان الشاب يومئذ قد قارب الثلاثين من عمره، وذات يوم من أيام تلك السنة تناهى إلى سمع الجيران صوت غريب لم يألفوه من قبل، فهرعوا على أثره إلى نوافذهم فرأوا عجبًا.

رأوا الشاب الذي هزئوا منه (هنري فورد) وزوجته يركبان عربة تجري بلا خيول، وشاهدوا بأعينهم المذهولة تلك العربة العجيبة تصل إلى نهاية الشارع ثم تعود.

ويومئذ شهد العالم الحديث مولد اختراع جديد كان له أبلغ الأثر في تطور المدينة والمدنية، والاختراع والسيارات.

يقول جدي في أوراقه الصفراء، أنه قبل هذا الاختراع وخلال فترة عمله قرأ (هنري فورد) مقالة في مجلة عالم العلم عن المهندس الألماني (نيكلوس أوتو) الذي قام ببناء محرك احتراق داخلي، فتولد عند فورد اهتمام بالسيارات التي كانت حينذاك اختراعًا جديدًا، فصنع فورد أول محركاته التي تعمل بالبترول عام 1893م، كما صنع أول سياراته عام 1896، وكانت تلك السيارة تعمل بمحرك عدد 2 أسطوانة رباعي الأشواط ومركب على عجلات دراجة وسميت باسم (كوادريسيكل)، وكان للسيارة نقلتين أماميتين ولم يكن بها نقلة خلفية أو فرامل، وقام هنري فورد ببيع سيارته واستخدام ثمنها في تمويل عمله في مجال السيارات.

وفي عام 1903 أسس شركة فورد للسيارات، وكان هنري نائب الرئيس فيها ورئيس المهندسين، وقامت تلك الشركة بتجميع عدد قليل من السيارات، حيث تقوم مجموعة من أثنين إلى ثلاث عمال بالعمل على كل سيارة من أجزاء مصنعة بالشركة أو مطلوبة من شركات أخرى. وقام ببناء السيارة موديل (A)، وخلال فترة السنوات التالية قام ببناء أنواع مختلفة من الموديلات ومنها بعض من سيارات السباق التي سجل بها أرقاماً قياسية.

ويواصل جدي في سرد هذه الحكاية، ولكن أجد أني اكتفيت من رحلة هنري فورد، وأنا أسأل نفسي ترى ماذا كان سيحدث لو أن فورد فعلاً سمع كلام الجيران ووالده، هل كان سيصل بصناعة السيارات إلى هذا المستوى من الإبداع والوفرة والكثرة ؟

حكاية هنري فورد ذكرتني بحكاية أخرى قرأتها سابقًا بين أوراق جدي الصفراء، فرحت أعبث مرة أخرى بكل تلك الأوراق، فوجدتها، إذ تقول الحكاية:

كان هناك مجموعة من الضفادع تمشي بالقرب من الترعة العميقة، وكان يحيط بالترعة العديد من الحفر العميقة التي حفرها الإنسان لأغراض ري المزروعات وجمع المياه وما إلى ذلك.

وأثناء سيرهم ومرحهم، كانوا يتدافعون وفي بعض الأحيان يتراكضون ويقفزون، وكانوا غير مبالين بالحفر ولا بالطريق ولا بأي شيء، فقد كان المرح وهو الجو السائد عليهم.

وأثناء ذلك، وفجأة سقطت إثنين منهم في حفرة عميقة، فتنبه الباقون لما حدث، فالتفتوا ونظروا إلى داخل الحفرة، فاقتنع الباقون أنه يستحيل على الضفدعتين أن تخرجا من الحفرة؛ فقالوا لهما: "مستحيل الخروج مهما قفزتما فلن تصلا، عليكما بالاستسلام والبقاء في الحفرة بانتظار الموت".

وبالفعل بعد برهة من الوقت، ماتت واحدة، أما الأخرى فظلت تحاول القفز والخروج من الحفرة، وهم يخبروها "لن تستطيع مهما فعلت"، ويُهللون ويصرخون ويرفعون أيدهم وأرجلهم محاولين تثبيط الضفدعة الموجودة في الحفرة، وكانوا يرددون "لماذا تتعبين نفسك ؟ أبقِ هناك بانتظار الموت".

وبعد العديد من المحاولات والمحاولات استطاعت تلك الضفدعة أن تخرج من الحفرة. فسألوها كيف تمكنت من الخروج ؟ إلا أنها لم ترد عليهم بكلمه، وكرروا السؤال مراراً وتكراراً، ولكنها كانت كل هذا الوقت صامته لا تتكلم.

وأثناء انشغال الضفادع بالضفدعة التي خرجت من الحفرة جاء ضفدع عجوز وبعد أن فهم القصة ضحك وقال لهم: "إن هذه الضفدعة صمّاء لا تسمع ولا تتكلم، فقد كانت تظن أنكم تشجعونها على الخروج بينما أنتم تهدمون عزيمتها".

وتنتهي أوراق جدي الصفراء، فأغلقتُ الصندوق، ورحت أفكر وأسأل نفسي هذا السؤال: ما وجه الشبه بين قصة هنري فورد وقصة الضفدعة الصماء التي لا تسمع كلام من حولها ؟ وكان الجواب: هو عدم الإصغاء للمحبطين.

أصبح من المعروف اليوم أن الإبداع يولد من رحم الأفكار – كما يقال – وخاصة الأفكار غير العادية وغير المألوفة، ونحن لا نعتقد أنه يوجد إنسان طبيعي ليس له من الإبداع نصيب، ولكن الكثير من المبدعين يعيشون – وللأسف – في بيئات محبطة، سلبية، لذلك لا يتجرأ أصحابها للمضي قدمًا في تحقيق أفكارهم وإبداعاتهم، فالجميع يهتف بهم: "لماذا المضي قدمًا ؟ ماذا ستجني مستقبلاً غير التعب والإرهاق ؟"، ومثل هذا الكلمات، وربما نتأثر بمثل هذه الجمل وتلك الكلمات وخاصة عندما تقف في طريق تقدمنا العوائق والمشكلات، وربما الأهوال، ونجد أن كل الطريق التي حاولنا عبورها مغلقة لا تنفتح، ويصادفنا الفشل، ومن ثم الفشل، فنحن بشر نتأثر كثيرًا في عواطفنا ومشاعرنا من غير إرادة منا.

حينها نصاب باليأس والاكتئاب، وكثيرًا ما نفقد أعصابنا وقدراتنا على التحكم في أخلاقياتنا وقيمنا ومبادئنا، ونشك في كل شيء.

ولكن في تلك اللحظة وعندما نبلغ ذروة ضعفنا البشري، ونجد أن أفكارنا تتصاعد وفجأة تتساقط كأمواج البحر، ونجد أنفسنا نعيد التفكير في كل شيء، لذلك وحتى نصل إلى ميناء آمن علينا أولاً أن نغلق آذاننا ونضع فيها كمية من الطين والعجين لكل تلك الأصوات المحبطة التي تصادفنا في حياتنا، ونغلق النوافذ والأبواب وحتى لا نسمع الطرق التي تمنع تقدمنا نحو تحقيق أولوياتنا وأهدافنا.

وحينما نغلق آذاننا عن سماع كل نعيق، نفتح مع نفوسنا نافذة لنسمع صوت أنفسنا، لندرك أن الإلهام الداخلي فينا هو بمثابة قوة كامنة تدفعنا نحو الأمام، وباتجاه الأفضل وأنت فقط من تقرر؛ هل تغتنمها لتنال نجاحًا كاملاً، أم تتجاوزها لتعيش في خوف من التجربة مهما كانت

قابلة للتحقق والنجاح بامتلاكك كافة المقومات والأسباب لتنفيذها وجعلها أمرًا واقعًا تُخرس فيه تلك الأصوات التي رَددت مرارًا وتكرارًا على مسامعك "لن تنجح، لأننا لم ننجح من قبلك"، تلك الأصوات التي تجعل من ذاتها مقياساً لتجارب الآخرين وطموحاتهم وتُسهم بالإدلاء بآرائها كلما سمحت الفرص بذلك، ببساطة أنا لست أنت. أدخل إلى داخل نفسك واسبر أغوارها وأذهب وأكتشف سَبيل النجاح الذي أساسه الإيمان والثقة بما تملك وبما لديك.

وربما ثالثًا؛ فإنه حينما يغمرك اليأس حتى العنق تذكر قصص الناجحين مهما كانوا ومن أين كانوا، ومن الطبيعي أن يكون على رأسهم وفي رأس القائمة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فقد بدأ وحيداً ليس معه إلا إيمانه باللّه سبحانه وتعالى وبنفسه ومعه من البشر زوجته وصديق عمره وغلام صغير رضوان اللّه عليهم، وخلال سنوات قليلة كون دولة وحكومة.

تذكر جميع المبدعين والمفكرين الذي قدموا للبشرية أعظم الأعمال والاكتشافات، فهل تعتقد أن حياة توماس أديسون كانت سهلة ؟ هل تعتقد أن أبو بكر الرازي عاش حياة مترفه ؟ هل تعتقد إن ابن النفيس كان يعيش في قصر، وإن ابن خلدون كان يمتلك من الأموال التي تعجز عن حملها الركبان ؟

كل هؤلاء سهروا وتعبوا وعاشوا من الحياة وشظفها وتعبها ومعاناتها وعرقها، ولكنهم سجلوا اسمهم في التاريخ، وظلت أعمالهم تدرس إلى قرون، ليس ذلك فحسب وإنما ما زال الناس تتذكرهم وتتذكر أعمالهم

وذلك من خلال ما تركوا من أرث حضاري فكري لم يتمكن العاجزون أن يتركوا مثله.

دع الناس تتكلم، ولكن دع عنك كلام الناس جانبًا واستمر فلا أحد يتمنى الخير لأحد هذه الأيام، إلا من رحم ربي، ثق بنفسك وقدراتك ولا تلتفت للمحبطين خلفك كن قويًا بثقتك وعزيمتك وطموحك وهذا يكفي، عندئذ فقط ستتأكد أنك كنت على حق.